ماذا يخفي موضوع الحبّ في التّعالق من جديد؟، في التّوسل بالحبّ إلى شرط آخر، هناك جوهر العلاقة في الاستفهام الخفيّ لروزا لوكسمبورغ ، حيث الإيمان بالطّرف الآخر شرط ضروريّ في آثار محتوى التّواصل، وفي هذا التّعالق المتناظر باللّغة الرّياضيّة تتوفر شروط الانعكاس، بفعل الارتداد أو الصّدى؛ قد يبدو التّلازم بعيدا أو غير واضح، في ربط الانعكاس باللّاوعي، لكن السّؤال اليسير الكاشف طبيعة الصّلة، هو، هل الانعكاس في العلاقة يحدث على مستوى السّطح أو في البنية العميقة؟..تمدّنا مدرسة بالو آلطو، في تمتين الحجّة، بمفهوم النّسق، ننتهي به إلى أنّ حادث التّواصل لا يتمّ إلاّ باللاّوعي، وأنّ السّياق التّاريخيّ في غاية القيمة، في اختراق الصّورة المرئيّة للذّات؛ لكن، هل السّياق التّاريخيّ الّذي انتهجه التّحليل النّفسيّ الكلاسيكيّ كاف في هذه العلاقة؟، تجوهر مدرسة آلطو، في منهجها النّسقيّ، مفهوم الإجبار المزدوج، في بيان التّواصل أساس كلّ عطالة في النّسق الاجتماعيّ، في حالته الحاضرة، ممّا يجعل العلاقة الإصغائيّة أشدّ تعقيدا؛ يوّجهنا السّؤال إلى نقد المدرسة الفرويديّة، بمفاهيم الرّأسماليّة والنّموذج الموّحد للطّبيعة الإنسانيّة، بفعل الخلفيّة الجنسيّة، فضلا عن التّحديد الزّمنيّ الّذي يؤسّس به فرويد لنظريّته، مما يدفعنا إلى الحكم المسبق بالمعرفة العصيّة لوصف الذّات، لعلّ السّؤال الدّقيق الّذي ينطرح في هذا التّحديد الزّمنيّ، في تجليّة النّقد الواقع على التّحليل الفرويديّ بمتغيّر التّكامل، هو ما يبحث الاستمراريّة في التّواصل، بمناقشة مفهوم الإنسان، مفهوم الإنسان عند ماركس، الخوف من الحرّية، بقراءة الذّات تصف نفسها، في كينونة الإنسان، لبيان الرّؤى المتواشجة في التّواصل، الوعي بالذّات، الوعي بالآخر، والوعي بضرورة الاندماج، في مقابلة الانفصال؛ هذه المفاهيم تُعدّ مفتاح العلاقات بنسقيّة أصلها ريّاضيّة، وسبرنيطيقيّة بمعنى الصدى أو الارتداد، وديناميّة حراريّة في بعدها الاتّزانيّ.

إشكالية بحث الاستمراريّة، في التّحديد الزّمنيّ الفرويديّ، من زاوية تحليلي، هي إشكاليّة تحديد القواسم المشتركة في تشكيل قاعدة العلاقة، بفعل متغيّر النّسق في اتّجاه الإصغاء، تستوقفنا في مسرح المخاطبة العلّيةُ المتبادلة غير المستقرّة؛ هذا، وتذهب جوديث بتلر بسؤال غير معلن يظهر في تجاوز قيمة كفاية وصف الذّات إلى تقدّم وتعزيز استمراريّة مشهد المخاطبة، بقولها:"لذلك فإنّ المكافيء الأخلاقيّ لهذه الحالة لا يعتمد على سؤال إن كان الوصف الّذي أقدّمه عن نفسي كافيّا، بل هو يتعلّق بالأحرى بمسألة إن كنت بتقديمي الوصف أؤسس علاقة مع الشّخص الّذي أوّجه إليه وصفي، وإن كان طرفا التحاور يتعزّزان ويتغيّران بوساطة مشهد المخاطبة".[1] تبسط المخاطبة استفهاما في مسألة اللّغة، في انصرافها إلى الرّمزيّة الاجتماعيّة أكثر من التّعبير عن الذّات، برؤى تجيب عن رهانات وممكنات التّواصل، بتحليل يُستجوب بذلك التّناظم العلميّ في مفهوم التّواصل. هذه الرّهانات تسوّغ لعلوم ينبني عليها فعل التّواصل، أو بالأحرى فعل العلاقة الّذي يسمح بالتّكامل بشرط الاستمراريّة؛ الاستمراريّة تستدعي تحليل تلك العليّة المتبادلة بمعارف لم تعد هامشيّة، نأخذ على سبيل المثال، منها السيوكولوجيا، السوسيولوجيا، اللّسانيات، الإيطيقيّة، السيميائيّة، علوم الإعلام، الكيمياء...، في فلسفة تجيب عن مرتهنات التّواصل وممكناته، قد تبدو، على المستوى النّظريّ والتّطبيقيّ، في منتهى الشّفافيّة، في غاية تتخطّى ماهو علميّ إلى فنّية التّواصل.

ما الّذي يعيق فعل التّواصل أو ما الّذي ييسّره؟، وما علاقته بالتّحليل النّفسيّ الّذي يقفز على المقابلة العيّاديّة في انفتاح سيروراتيّ لعلاقات اجتماعيّة تتيح مفهوم الانعكاس؟؛ بمعنى أنّنا أمام تحدّيات فعاليّة الفرد في تفاعلات ترتكز على سؤال الارتهان في سياق ينتظم فيه السّلوك، الفكر، بالتّداول؛ سيميائيّا، يتعقّد المعنى في تباين دلالات العلامات الواردة في التّواصل بتساؤلات تستحضر اللّغة، السيميولوجيا، الجسد، الحواس...، التّقارب، التّباعد، الثّقافة، المعرفة...، في سياق الوعي بالذّات، فضلا، عن ما يعيق حركة الانعكاس، بنسبيّة المعيار الاجتماعيّ، بسبب الآليات النّفسيّة الّتي يتمّ بها قبول الرّسالة الاجتماعيّة؛ تختفي فيها، أي الآليات النّفسيّة، واحدة من مشكّلات أزمة التّواصل والتّحليل النفسيّ، هي العنف الأخلاقيّ، ذلك أنّ لا أحد يعترض على المعايير الأخلاقيّة إقرارا

[1] جوديث بتلر،الذّات تصف نفسها(بيروت، التّنوير للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2014)، 107.

اجتماعيّا في محاولة ضمان الاستمراريّة؛ صحيح أنّ نقد الأخلاق لم يكن من اهتمامات سيغوند فرويد لتجاهله قيمة محتوى المعايير في تطابقها مع قوانين تطوّر الإنسان ومتطلّباته الطّبيعيّة، لكن هذا النّقد لا يتمنّع عن الانكشاف في مطلب رهانات التّواصل، بشكل عام. وبسؤال جوديث بتلر، هل يمكن أن ينشأ معنى جديد للأخلاق؟؛[2] تنفتح هذه الرّهانات، في مسألة مجال التّعريف، دائما بالمعنى الرّياضيّ الدّقيق، في بعد التّكامل، حيث الاعتراف المتبادل لا يمكن أن يكون إلاّ جوهرا في التّواصل؛ لا ينصرف سؤال بتلر عن العلاقة أرضية تشكيل الحكم الخلقيّ، بالمعنى السيكولوجيّ الذّي يُعدّ قيمة ساميّة على كلّ حكم، أين ننتبه في العلاقة الإصغائية إلى ما يحجب هذا الحكم من رهانات فلسفيّة تبنّاها الباحث عزّ الدّين الخطّابي في مقال"الفلسفة والتّواصل...الرّهان والممكن" من طرح أليكس مكيبلي، تظهر هذه العلاقة في شكل تموقعات هي أقرب للإخراج المسرحيّ من معرفة الذّات، يجملها الخطّابيّ في لغة التّأثير والتّأثّر،[3]قد يبدو سؤال جوديث مبتورا، لأنّ شرط معنى جدّة الأخلاق غير واضح، وهو بتر متعمّد لبيان أنّ نشوء المعنى الجديد لا يتمّ إلاّ في ظروف طبيعيّة تجعل من الإخفاق أمرا حتميّا، لذلك صاغته جوديث، هل يمكن أن ينشأ معنى جديد للأخلاق من مثل هذا الإخفاق المحتوم؟، وهي ترمي إلى أنّ منح الاعتراف رهين فعل إرباك المسار بشيء من غير الذّات، لتبيّن أنّ الاخفاق في إنجاز هويّة الذّات يدخل رهانا جوهريا، بانتفاء الإدّعاء بمعرفة الذّات.

كيف يشتغل الانعكاس في إطار العلاقة؟، أو بالأحرى، في إطار التّأثير والتّأثر؟، يعيدنا السّؤال إلى إشكاليّة بحث الاستمراريّة، يفيد حال الانعكاس التّغيّر، كما يفيد، في الآن ذاته، المقاومة(ما يحول دون النّفاذ إلى النّواة المرضيّة)؛ يندس في هذه المنطقة الحدوديّة سؤال اللّغة، فهل هي كافيّة في تجليّة الطبقة الدّفينة؟، يبدو أنّنا أمام موضوع رغبة تُعجز أداة الحوار، في شكل تحويل، حيث هنا رغبات في علاقة راهنة، بواسطة العمليّة التّي تتجسّد بها الصّراعات اللّاواعيّة عبر انصبابها على المحلّل، وليس التّذكر. تشي هذه المنطقة، قبل الولوج الحتميّ في سؤال اللّغة بإشكاليّة التّواصل والدّلالة، بمرتهن فلسفيّ يتّكيء على المتناقضات السّيمانطيقيّة في تحليل فعل التّواصل بمفهومي الوعي واللاّوعي، في سياق الحقيقية بوصفها معيارا واعتقادا، بحسب وسم مصطفى صفوان في مؤلفه"الكلام أو الموت"،[4]في انبساط اللّغة بين الرّمزيّة الاجتماعيّة والذّات، في تقسيم موقعيّ يسحبنا إلى الدّال والمدلول، يلزم عنه مناقشة تقسيم آخر للذّات بين نظامين، عودة المكبوت (ظهور ثان في الوعي والسّلوك والأعراض) والمجتمع؛ يوّجهنا هذا التّقسيم إلى بحث التّفرقة بين السبب والمعيار في بيان مصدر الأخلاق، في تأثيرها على الفعل والعاطفة، ما يجعل قواعدها من غير عمل العقل، إنه تقسيم يُلحق في عبارة" لا تكذب" مثلا، كمتناقضة سيمانطيقيّة، التّوكيد بفعل التّفكير، والمعيار بفعل الإرادة، كون هذا الأخير توجّها قصديّا في سلوك إنسانيّ معيّن.

---

[2] المصدر نفسه، 95.

[3] الجابري ، التواصل...نظريات وتطبيقات، 22.

[4] مصطفى صفوان، الكلام أو الموت(بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2008)، 63.